ملكة الذوق عند المفسر
وأثرها في إبراز جمال الجملة القرآنية

د. عبد الرحمن بن سند بن راشد الرحيلي (*)

المقدمة :

الحمد لله الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على من بعثه ربه بالحق هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وبعد:

فقد شغل بيانُ القرآن العربَ منذ اللحظات الأولى لنزوله، فغدا شغلهم الشاغل، سواء مَن آمَنَ به، أو مَن لم يُؤمن، فقد طَلَع عليهم القرآن الكريم فرأَوا في أسلوبه ذات ألفاظهم وقد تساوقت فيما أَلِفوه من طُرُق الخطاب وألوان المنطق، دون عنَتٍ أو تصنُّع، غير أنه "ورد عليهم من طُرُق نظمِه، ووجوهِ تركيبِه، ونَسَقِ حروفه في كلماتها، وكلماته في جُمَلِها، ونَسَق هذه الجمل في جملته ما أذهَلَهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوفٍ تقشَعِرُّ منه الجلود، حتى أحَسّوا بضعف الفطرة القوية، وتخلّف الملَكة المستَحكَمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنسٌ من الكلام غير ما هم فيه، وأنّ هذا التركيب هو روح الفطرة اللُّغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب، أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم، واطّلع على قلوبهم، بل هو السِّرُّ الذي يفشي نفسَه وإن كَتَموه، ويظهر على ألسنتهم، ويتبيّن في وجوههم، وينتهي إلى حيث ينتهي الشعور والحسّ "[1]، ﴿قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلى أَن

(*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بجامعة طيبة.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٣١).

يَأتوا بِمِثلِ هذَا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثلِهِ وَلَو كانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهيرًا ﴾ (سورة الإسراء٨٨).

وهذه اللغة القرآنية السّاحرة التي أذهلت الناس عن أنفسهم، واقشعرّت لها أبدانُهم، فخرّوا لها خاشعين هي التي دَعَت إلى بسط القول في فنون فصاحة القرآن ونظمه ووجوه تأليف الكلام فيه. فانبرى علماء المسلمين للتأليف في وجوه إعجازه. وقد كان لنظم القرآن، وما يمكن أن يكون مرجعه الصوت من وجوه البلاغة المحلّ الأرفع من بين وجوه الإعجاز الأخرى.

وقد اشتغل المسلمون بدراسة هذا النسق القرآني منذ نزوله وحتى يومنا هذا، لذلك كان حريٌّ بنا تناول ما قدَّمه أولئك وهؤلاء، لنقف على مدى إسهامهم في هذا المضمار.

وقد جاء هذا البحث بعنوان:" ملكة الذوق عند المفسر وأثرها في إبراز جمال الجملة القرآنية"، سعياً في استنباط أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيثيات مختلفة، واكتشاف أسرار ذلك الجمال، وتحديد مواطنه، ومظاهر الإتقان فيه، مع الوقوف على نماذج تحليلية عند كل أثر من الآثار التي سأذكرها –إن شاء الله تعالى–.

أهمية البحث:

١) الكشف عن وجه عظيم من أوجه جماليات القرآن الكريم وإعجازه.

٢) عمق الموضوع من الناحية التفسيرية؛ لأنه يبحث عن أسرار الجمال القرآني وسبل استجلابها بمقاييس إبداعية لطيفة.

٣) استرعاء القرآن الكريم للأسماع، وإثارته للانتباه؛ جعلني أكتب في جمال الجملة القرآنية؛ ليبقى القرآن الكريم أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، فلا يجرؤ أحد على تبديله وتحريفه.

٤) دراسة الموضوع من خلال ذكر نماذج من تفاسير العلماء عليه، تجمع أصوله وتبرزها.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في أن الموضوع عنوان البحث لم يفرد بدراسة مستقلة تُوضَّح فيها أهميته ومدى حاجة المفسر إليه، والاستفاضة في بيان وإبراز جوانب الجمال في الجملة القرآنية، وإنما جاءت الإشارة إليه في الدراسات السابقة عند الحديث عن إعجاز القرآن الكريم وبلاغته بوجه عام، وبشكل مقتضب مختصر، لا تفي بالمقصود من التساؤلات التالية:

ما المراد بملكة الذوق؟ وما مدى أهميتها وحاجة المفسر إليها؟

وما معنى الجمال القرآني؟ وما هو تعريف الجملة القرآنية؟

وما أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية؟

أهداف البحث:

١) توضيح معنى ملكة الذوق، وجمال الجملة القرآنية.

٢) بيان أهمية الذوق للمفسرين، ومدى حاجتهم إليه، ومناهجهم فيه.

٣) إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث التلاؤم والاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي بين كلماتها، والدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل، وإخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس، وطريقة أسلوبها، ودلالة سياقها، ودلالة المناسبة بين الآيتين، أو آيات السورة الواحدة.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والسؤال والتقصي لم أقف على من تناول الموضوع عنوان البحث بدراسة مستقلة تحقق الأهداف السابقة.

خطة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة، وستة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وتشتمل على أهمية البحث، ومشكلة البحث، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج البحث.

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الملكة لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف الذوق لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: الجمال القرآني.

المطلب الرابع: الجملة القرآنية.

المبحث الثاني: بيان أهمية الذوق، ومدى حاجة المفسرين إليه، ومناهجهم فيه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أهمية الذوق.

المطلب الثاني: حاجة المفسر إلى الذوق.

المطلب الثالث: مناهج المفسرين في تذوقهم لآيات القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث التلاؤم والاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي بين كلماتها.

المطلب الثاني: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل.

المطلب الثالث: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس.

المطلب الرابع: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث طريقة أسلوبها.

المطلب الخامس: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث دلالة سياقها.

المطلب السادس: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث دلالة المناسبة بين الآيتين، أو آيات السورة الواحدة.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

منهج البحث:

انتهجت في هذا البحث المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي، حيث رصدت بعض الجمل القرآنية التي ظهر فيها تفاوت المفسرين في الوصول إلى أعماق معانيها، وأسرار جمالها، وبعض أوجه إعجازها؛ لأخلص إلى السبب الأساس وراء هذا التفاوت، وهو مدى استحكام ملكة الذوق لديهم، وتفاوتهم في ذلك.

وجاءت خطوات تنفيذ هذا المنهج وفق المحاور التالية:

١) عزو الآيات القرآنية التي ذكرت في البحث بذكر اسم السورة ورقم الآية في أصل البحث.

٢) توثيق المعلومات المذكورة في البحث من مصادرها الأصلية.

٣) الاختصار في النماذج التطبيقية – قدر الإمكان–؛ خشية الإطالة في البحث.

الإجراءات:

الاهتمام ببيان أثر الذوق وإبرازه لجمال الجملة القرآنية وتحليل ذلك وإيضاح دلالاته.

المبحث الأول

التعريف بمصطلحات البحث

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الملكة لغة واصطلاحاً.

أولاً: تعريف المَلَكَة لغة:

قال ابن فارس: "الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة. يُقال: أَمْلَكَ عجينَه: قوَّى عجْنَه وشدَّه. وملَّكْتُ الشيء: قوَّيتُهُ".(١)

والمَلْك، والمِلْك: احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به. ومَلَكَ فلان فهو يملِكُ مُلْكاً، ومِلْكاً، ومَلَكةً، ومَملَكةً، ومَملُكةً، ومَلْكاً. وَيُقَال للرجل إذا تزوج: قد مَلَكَ فلان يَملِكُ مَلْكاً، ومُلكاً، ومِلكاً. والمَلْكُ: ما مَلَكَتِ اليد من مال وخوَل. والمَلَكة: مُلْكُكَ.(٢)

وبناء عليه يكون مدار معنى المَلَكَة في اللغة على القوة في امتلاك الشيء والقدرة عليه.

ثانياً: تعريف المَلَكَة اصطلاحاً:

عُرّفت المَلَكَة في الاصطلاح بعدة تعريفات، منها:

أولاً: تعريف ابن خلدون حيث قال: "والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة".(٣)

فابن خلدون يرى أن الملَكَة مهارة ثابتة تكتسب عن طريق التكرار والتعلم والممارسة.

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٣٥١).

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري (١٠/ ١٤٩)؛ المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٧/ ٥٤)؛ لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٤٩٢).

(٣) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (١/٧٦٤) .

ثانياً: تعريف الجرجاني حيث يقول: "هي صفة راسخة في النفس، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة: كيفية نفسانية، وتسمى: حالة، ما دامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير مَلَكَة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادةً وخلقاً".(١)

ثالثاً: عرفها الدكتور أحمد مختار بقوله: "صفة راسخة في النفس، أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معيَّنة بذكاء ومهارة".(٢)

ومن خلال النظر في التعريفات السابقة نستطيع القول بأن تعريف الملَكَة في الاصطلاح: المعارف والمهارات التي يكتسبها المرء من خلال الدربة والتعلم والتكرار حتى تصبح صفة راسخة فيه.

المطلب الثاني: تعريف الذَوْق لغة واصطلاحاً.

أولاً: تعريف الذَوْق لغة:

قال الأزهري: "الذَوْق: مصدر ذاقَ يذوقُ ذَوْقاً ومَذاقاً وذَوَاقاً. فالذَّوَاق والمَذاق يكونان مصدَرَين، ويكونان طعماً، كما تقول: ذَواقهُ ومذاقُه طيِّب. وتقول: ذُقْتُ فلانا وذقتُ ما عنده؛ وكذلك ما نزل بإنسان من مكروه فقد ذاقه... والذَّوْق يكون فيما يُكرَه ويُحمَد. ..والذَوْق يكون بالفم وبغير الفم.(٣)

وقال ابن فارس: "الذال والواو والقاف أصل واحد، وهو اختبار الشيء من جهة تَطَعُّمٍ، ثم يُشتق منه مجازاً فيُقال: ذقتُ المأكول أَذُوقُهُ ذَوْقًا. وذقتُ ما عند فلان: اختبرتُه.(٤)

---

(١) التعريفات (ص: ٢٢٩).

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل (٢١٢٣/٣).

(٣) تهذيب اللغة (٩/ ٢٠٣).

(٤) مقاييس اللغة (٢/ ٣٦٤).

ويتضح مما تقدَّم أن معنى الذوق في الأصل لتذوّق الطعام والشراب، ثم استعير المعنى لأغراض أخرى، قال ابن قتيبة: "وأصل الذّوق: بالفم، ثم قد يُستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار" .[1]

وقد وردت هذه اللفظة (الذوق) ومشتقاتها في القرآن الكريم في أكثر من ستين موضعاً، ولم تُستعمل ويراد بها تذوق الطعام والشراب إلا في ثلاثة مواضع، هي: ﴿فَلَمّا ذاقَا الشَّجَرَةَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٢)، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (سورة النبأ: ٢٤)، ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، (سورة ص: ٥٧)، أما في بقية المواضع فقد استُعملت واستُعيرت لغير هذا المعنى، حيث تتسع لمعانٍ أشمل وأوسع، حيث جاءت مع الوبال، والبأس، والسوء، والعذاب، والكنز، والعمل، والفتنة، واللباس، وغيرها، يقول الراغب: "اختير في القرآن لفظ الذوق للعذاب؛ لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل، فهو مستصلح للكثير، فخصَّه بالذكر؛ ليُعلم الأمرين، وكثر استعماله في العذاب،... وقد جاء في الرحمة،... ويعبر به عن الاختبار" .[2]

وبناء عليه فالذوق في اللغة حاسة شعورية معنوية أو عاطفية تجاه الأشياء، ولا يختص بما يتذوق بالفم فقط، ومن جعله مقصورًا على ذلك فقد ضيَّق واسعاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فلفظ "الذوق" يُستعمل في كل ما يحسُّ به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدَّعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكُّم منه" .[3]

وقال الفيروزآبادي:" الذوق: مباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة، ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب" .[4]

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص: ١٠٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٠).

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣/ ٢٤).

ثانياً: تعريف الذوق اصطلاحاً:

إن لفظة الذوق عند المفسرين تتسع إلى ما هو أشمل على ما يذاق باللسان فقط، حيث يتذوق المفسر جمال القرآن في ألفاظه وجُمَله ومعانيه وسياقاته وتراكيب ذلك كله، وقد تداول المعتنون بفنون البيان عدة تعريفات للذوق، منها تعريف ابن خلدون إذ يقول: "اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للّسان...وتتحصل هذه الملكة من خلال ممارسة كلام العرب وتكرار سماعه والتفطن لخواص تركيبه" .[1]

ويعرفه الدكتور جميل صليبا بأنه: "قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية" .[2]

ومن هنا يتبين أن التذوق خبرة تأملية جمالية، ونشاط إيجابي، واستجابة انفعالية مع النص، وملكة تقوم على الاستعداد الفطري لتقدير النص ومعايشة روائعه والحكم عليه، تصقلها الخبرة، وطول القراءة، ومعاناة التجربة، وحين تترسخ هذه الملكة تجعل المفسر لآيات الكتاب العزيز متذوقاً للنص القرآني، متفاعلاً معه بكل جوارحه وأحاسيسه، مقبلاً على إدراك جمالياته، والحكم على فنياته، وتجعله يتذوق حلاوة وجمال النص القرآني، ويفهم مراميه، ويعي مقاصده.

وعليه فإننا نستطيع أن نعرف الذوق اصطلاحاً بأنه: النتيجة الناشئة عن فهم المعاني المتضمنة في النص القرآني، والإحساس بجمال أسلوبه، والقدرة على الحكم عليه بإبراز خصائصه الجمالية.

---

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (٧٧٥/١).

(٢) المعجم الفلسفي (٥٩٧/١).

المطلب الثالث: الجمال القرآني.

أولاً: تعريف الجمال لغة:

إن المتتبع للمعاجم اللغوية يجد أن مادة (ج م ل) تدور في اللغة على معانٍ متعددة، منها: التجمع وعظم الخلق، ومنها البهاء والحسن، وهو ضد القبح.

قال الخليل الفراهيدي: "والجَمال: مصدر الجميل، والفعل منه جَمُلَ يَجمُلُ. وقال الله تعالى: ﴿وَلَكُم فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وَحينَ تَسرَحونَ﴾ (سورة النحل: ٦)، أي بهاء وحسن.[١]

وقال ابن فارس: "الجيم والميم واللام أصلان: أحدهما تجمع وعظم الخلق، والآخر حسن. فالأول قولك: أجملتُ الشيء، وهذه جُملة الشيء. وأجملتُه حصَّلتُه. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (سورة الفرقان: ٣٢)، ... والأصل الآخر الجَمَال، وهو ضد القبح [٢]. والمعنى المراد هنا هو البهاء والحسن.

ثانياً: تعريف الجمال اصطلاحاً:

أورد العلماء عدة تعريفات للجمال في الاصطلاح، وهي في جملتها متقاربة، ويوجد بينها بعض التفاوت، ومنها:

تعريف ابن الأثير: "والجمال يقع على الصور والمعاني. ومنه الحديث: "إن الله تعالى جميل يحب الجمال"[٣]، أي حَسَن الأفعال كامل الأوصاف .[٤]

وتعريف الجرجاني: "الجمال من الصفات: ما يتعلق بالرضا واللطف" [٥]. وتعريفه يدل على أن الجمال عنده جمال الباطن.

---

(١) العين (٦/ ١٤٢).
(٢) مقاييس اللغة (١/ ٤٨١).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، باب: تحريم الكبر وبيانه، كتاب: الإيمان، (٩١) (٩٣/١) وهو جزء من حديث.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٩٩).
(٥) التعريفات (ص: ٧٨).

وتعريف الكفوي: "الجميلة: هي التي تأخذ ببصرك على البعد" [1]. والظاهر من تعريفه أن الجمال عنده يختص بالأمور الظاهرة المحسوسة.

ولم يغفل المفسرون –رحمهم الله– عن تعريف الجمال في تفاسيرهم، ومن ذلك تعريف الأئمة:

القرطبي: "الجمال ما يتجمل به ويتزين. والجمال: الحسن...قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال".[2]

والألوسي: "زينة في أعين الناس وعظمة ووجاهة عندهم، والمشهور إطلاقه على الحسن الكثير، ويكون في الصورة بحسن التركيب وتناسق الأعضاء وتناسبها، وفي الأخلاق باشتمالها على الصفات المحمودة، وفي الأفعال بكونها ملائمة للمصلحة من درء المضرة وجلب المنفعة" .[3]

وابن عاشور: "حسن الشيء في صفات محاسن صنفه، فجمال الصبر أحسن أحواله، وهو أن لا يقارنه شيء يقلل خصائص ماهيته" .[4]

وكل ما تقدم من تعريفات للجمال اصطلاحاً يختص بالجمال البشري ظاهراً وباطناً، وصورةً وأخلاقاً.

أما تعريف الجمال القرآني بمعناه المركب الإضافي، وهو ما يعنينا في هذا البحث فهو: النظر في آيات القرآن الكريم وجُمَله وألفاظه للكشف عن أساليبه اللغوية المختلفة، من التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والتناسق والتقابل والإيجاز والإطناب وغيرها، وذلك من خلال الموضوعات القرآنية المتعددة، والتي تشمل المفردة المنتقاة الصافية، والتركيب الجزل، والصورة البارعة، والمثل السائر،

(١) الكليات (ص: ٣٥٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٧٠).
(٣) روح المعاني (٧/ ٣٤٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٩).

والحكمة البليغة، والحوار الفني، والقصة الواعظة، والتشريع السامي، والتصوير الكامل.

ومما لا شك فيه أن كلام الله تعالى "في أعلى درجات البيان من حيث لفظه، ومن حيث مغازيه، ومن حيث الصور البيانية التي تكون في ألفاظه وعباراته، حتى إن كل عبارة تلقي في الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها، ودقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة، وبتآخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانة أخرى، فوق أن كلام الله تعالى تنفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة، وحقائق بينة، وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الإنساني القويم، الهادي إلى الصراط المستقيم" .[1]

وأبرز ما يميز الجمالية في القرآن الكريم عناصر الأداء التعبيري المناسب، والذي يشمل التعبير الفني بألوانه وأنواعه وفق الدواعي النفسية والاجتماعية والإعجازية، وما يحويه من إيجاز وتصوير بالكلمة المعبرة، والتركيب الموحي، والآية أو الآيات المصورة في مشاهد حية، ولوحات شاخصة، وأحوال نفسية وذهنية عامة.

ويبقى التصوير هو الأداة المفضلة في القرآن الكريم، وهو الدال على جماليات القرآن الكريم، حيث يحول المعنى إلى صورة، حتى تصبح واقعاً ملموساً ومحسوساً، والجمال في القرآن يأتي بنص صريح، أو مفردة صريحة، أو جملة واضحة، أو يكون ضمنياً في معاني آيات القرآن، وهو في جميع هذه الأحوال، يسحر السامعين بقوة بيانه، وجودة سبكه، وجمال تعبيره، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص: ٢٨).

(١) المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة (ص: ٤٩).

المطلب الرابع: الجملة القرآنية.

أولاً: تعريف الجملة لغة:

عند التأمل والرجوع إلى جذر كلمة الفعل (جمل) التي تقدم تعريف ابن فارس لها[1]، نجد أنها تأتي بعدة معانٍ إذ من معانيها: تجميع شيء مع شيء، وتأتي بمعنى تحصيل حساب أو إجماله، وقد تأتي بمعنى الحسن والجمال، وما يخص تعريف الجملة لغة هنا هو معنى التجميع والضم.

ثانياً: تعريف الجملة اصطلاحاً:

الجملة العربية بصفة عامة كما يرى النحاة تتألف من ركنين أساسيين هما المسند والمسند إليه، فالمسند هو المتحدث عنه ولا يكون إلا اسماً، والمسند إليه هو المتحدث به ويكون اسماً أو فعلاً، وإن الناظر لآراء الأوائل يجد خلطاً بين مفهوم الكلام ومفهوم الجملة، فهم تحدثوا به عن مفهوم الكلام وأرادوا به مفهوم الجملة.

وإن أول من استعمل لفظ الجملة مصطلحاً محددَ الدلالة هو محمد بن يزيد المبرد(ت٢٨٦هـ) في كتابه المقتضب في معرض حديثه عن الفاعل، قائلاً: "هذا باب الفاعل، وهو رفع، وذلك قولك: قام عبد الله، وجلس زيد، وإنما كان الفاعل رفعاً؛ لأنه هو والفعل جُملة يَحسن عليها السكوت، وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر، إذا قلت: قام زيد، فهو بمنزلة قولك: القائم زيد" .[2]

فالمبرد يقصد بمصطلح الجملة: الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، وقد جعل الفعل والفاعل نظيرين للمبتدأ والخبر.

ثم ظل مفهوم الجملة يتردد في كتب النحو – مقصودًا به الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر – إلى أن جاء ابن جني (ت٣٩٢هـ)، فحدَّد مفهوم الجملة عن

---

(١) عند تعريف الجمال لغة.
(٢) المقتضب (٨/١).

طريق المقابلة والمقارنة بينهما وبين عددٍ من المصطلحات الأخرى، وعلى رأسها مصطلحا الكلام والقول.

ثم جاء بعده الزمخشري (ت٥٣٨هـ) وقسَّم الجملة إلى أربعة أنواع أو أقسام؛ إذ يقول: "والجملة على أربعة أضرب: فعليه واسمية، وشرطية وظرفية، وذلك: زيد ذهب أخوه، وعمرو أبوه منطلق، وبكر إن تُعطِه يَشكُرْك، وخالد في الدار" [(١)]. فالفعلية: ذهب أخوه، والاسمية: أبوه منطلق، والشرطية: إن تُعطِه يَشكُرْك، والظرفية: في الدار؛ أي: استقرَّ في الدار. هذا ما يتعلق بتعريف الجملة اصطلاحاً عند النحويين.

وأما الجملة القرآنية بجميع أنواعها وسياقاتها ودلالاتها فإنها تتواجد في مكانها المناسب حتّى تتلاءم مع الجمل السابقة والتالية من حيث المعنى واللفظ، كما أنها تدل على معنى عميق وواسع يعجز الناس عن الإتيان بمثله. وأي شكل جاءت عليه الجملة فهو ترتيب طبيعي للجملة لا يصح غيره، ولا يسلم في ذات الموقف والملابسة سواه.

"﴿الر كِتابٌ أُحكِمَت آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَدُن حَكيمٍ خَبيرٍ﴾ (سورة هود: ١)، ذلك خير ما تُوصف به الجملة القرآنية، فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغنى فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئاً، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني، غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها، وهى بحر خضم، ما تؤدى به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء.

(١) المفصل في صنعة الإعراب (ص:٤٤).

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها، لتلقيه في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهراً فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار" .[1]

**

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البدوي (ص: ٨٥).

المبحث الثاني
بيان أهمية الذوق
ومدى حاجة المفسرين إليه، ومناهجهم فيه،

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أهمية الذوق.

يعد الذوق هو المحصلة النهائية لدارس العلوم، وثمرة من ثمراته، حيث يستطيع الفرد إدراك الجمال في النص من خلال أساليبه المختلفة، وأن يحيط بذلك من جميع أطرافه، مما يجعله يقبل على قراءته، وفقاً لأنواع الجمال ومقوماته المتعددة في النص.

وللتذوق أهمية كبرى بالنسبة لمن يريد إبراز جماليات النص، وذلك أنه بعدما ينتهي من تدوين جوانب الجمال التي تذوقها، نرى أنه يقبل على ما دونه لينقحه أو يراجعه، فيضيف كلمة، أو يحذف أخرى، أو ربما يعدل بعض الأفكار فيما كتبه.

إذن تتضح أهمية الذوق من خلال القدرة على اكتشاف مفاتيح النص وأسراره وإعجازه، فيبرز المتذوق ما فيه من جماليات، وينعكس ذلك على منهج حياته في عباداته وأخلاقه ومعاملاته.

ولقد فطن العلماء قديماً وحديثاً إلى أهمية الذوق، فهذا إمام البيانيين عبد القاهر الجرجاني يعقد فصلاً في كتابه "دلائل الإعجاز" –وهو يتحدث عن اللفظ والنظم–، بعنوان: اشتراط الذوق فيه، يقول في مقدمته: "واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة" .[1]

(١) دلائل الإعجاز (ص:٢٥٢).

ويقول ابن الأثير: "واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم" .[١]

ويقول كذلك: "فإن النظم مبني على الذوق" .[٢]

وهذا صاحب كتاب صبح الأعشى يجعل الذوق أساس كل شيء، حيث يقول: "فإن اللفظة الواحدة قد تنتقل من هيئة إلى هيئة، أو من صفة إلى صفة، فتنتقل من القبح إلى الحسن وبالعكس فيصير القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، والمرجع في ذلك إلى الذوق الصحيح" .[٣]

فالذوق وإن كان موهبة فطرية قوامها الذكاء وحسن الاستعداد وسرعة البديهة، وقوة الفراسة، إلا أن ذلك يحتاج إلى دراسة وممارسة وتعلُّم، وكثرة تصفح، وإعمال فكر، وعمق اطلاع، فملكة الذوق لا تنبت من العدم، وهي وإن كانت أمراً معنوياً وجدانياً لكنها ليست بمعزل عن مكوناتها الحسية، وهذا ما أكده الزركشي في كتابه البرهان، معرفة إعجازه، إذ يقول: "وأما الكلام فلا يعرفه إلا بالذوق وليس كل من اشتغل بالنحو أو باللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق وممن يصلح لانتقاد الكلام، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة فإلى أولئك ينبغي أن يرجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض" .[٤]

ويقول ابن خلدون: " وهذا الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول مَلكته. فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه " .[٥]

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٣٥).
(٢) المصدر السابق (١/ ٦١).
(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (٢/ ٢٤١).
(٤) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٢٤).
(٥) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (٧٦٢/١).

وأكده كذلك ابن عاشور في مقدمة تفسيره بقوله: "والذوق كيفية للنفس بها تدرك الخواص والمزايا التي للكلام البليغ، قال شيخنا الجد الوزير: وهي ناشئة عن تتبع استعمال البلغاء فتحصل لغير العربي بتتبع موارد الاستعمال والتدبر في الكلام المقطوع ببلوغه غاية البلاغة، فدعوى معرفة الذوق لا تقبل إلا من الخاصة وهو يضعف ويقوى بحسب مثافنة ذلك التدبر" .[1]

المطلب الثاني: حاجة المفسر إلى الذوق.

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وهذا يعني أنه في ألفاظه ومعانيه، وأساليبه، وإعرابه واشتقاقه يوافق اللسان العرب الفصيح ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعقِلونَ﴾ (سورة يوسف: ٢)، وتعتبر معرفة لغة القرآن الكريم من أهم الأدوات لفهمه وتفسيره، ولا يصح فهمه وتفسيره إلا بطريق فهم اللسان الذي نزل به، فلذا يجب على المفسر أن يكون على معرفة تامة بقواعد اللغة العربية وأصولها ودلالتها، ولقد امتاز العرب الأوائل بذلك، وكان من العوامل المساعدة لهم سلامة الذوق، إذ كانوا يتنافسون في ذلك تنافساً شديداً؛ "ولهذا ترى البليغ ينقح الخطبة أو القصيدة حولاً ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا، وكتاب الله سبحانه لو نزعت منه لفظة ثم أدبر لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد، ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفي وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة" .[2]

ومن أهم الشروط التي يلزم توافرها في المفسر، أن يكون عالماً بمقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، وسلامة ذوقهم، سواء حصلت له تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أو

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٧).

حصلت بالتلقي والتعلم؛ ليتمكن من إبراز جوانب الجمال والإعجاز في تفسيره لكلام الرب جل وعلا، الذي هو أفصح الكلام وأحسنه ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ (سورة الزمر:٢٣)، ولن يتمكن من ذلك إلا إذا كان من أهل الذوق السليم، يقول السَّكاكي: "واعلم أني مهدت لك في هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها واعترف لك بكمال الحذق في البلاغة أبناؤها، إلى أن قال: ثم إذا كنت ممن ملك الذوق وتصفحت كلام رب العزة أطلعتك على ما يوردك موارد العزة وكشفت عن وجه إعجازه القناع" .[١]

ومما لا شك فيه أن من أبرز العلوم الأساسية التي يعتمد عليها المفسر في تفسيره لآيات القرآن الكريم ومعرفة معناها، وخواص التركيب وإبراز وجوه الإعجاز فيها، وتذوق جوانب الجمال في مفرداتها وجُمَلِها علم البلاغة بأقسامها الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع)، يقول العسكري: "وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمنّه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها" .[٢]

ثم إن الفهم السليم لمعاني آيات القرآن الكريم هو الفهم الصادر عن ذوق سليم، حيث تصيبه أساليب القرآن بعجائبها، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه. ومتى ما استصحب المفسر ذلك الذوق، وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان، اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر[٣] ، استطاع إبراز ما في آيات القرآن الكريم من اللطائف الجمالية والمحاسن الخفية.

---

(١) مفتاح العلوم (ص:٣٠١).
(٢) الصناعتين (ص: ١).
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا (١/ ٢٣).

وعليه فإن تفسير القرآن الكريم يحتاج إلى ذوق سليم خاص حيث يخالط القرآن روح المفسر وقلبه، ويتجرد في تفسيره عن كل نزعة وتحيّز، ويجتهد في تدبُّر آياته ويستطعمها وفق الأصول العلمية للاستنباط؛ حتى يتمكن من إبراز جوانب الجمال المتعلقة بآيات القرآن الكريم.

المطلب الثالث: مناهج المفسرين في تذوقهم لآيات القرآن الكريم:

عند استقراء كتب التفسير؛ لاستنباط مناهج المفسرين في تذوقهم لآيات القرآن الكريم، نجد أنهم على منهجين في ذلك:

المنهج الأول: منهج التذوق الذاتي للفظ القرآني، وأصحاب هذا المنهج يستشفُّون الجمال في الألفاظ والجمل القرآنية من غير تعليل، حيث يندر وجود القيم البيانية، واللفتات الإعجازية في تفاسيرهم، ومن أصحاب هذا المنهج مقاتل ابن سليمان، وسفيان الثوري، والواحدي في الوجيز، وغيرهم من المفسرين.

المنهج الثاني: منهج التذوق الموضوعي للآيات من حيث اللفظ والمعنى وسر الجمال فيهما، وأصحاب هذا المنهج يعتمدون في تذوقهم لتفسير بعض الآيات على قواعد اللغة من بلاغة ونحو وصرف وغيرها، ومن أصحاب هذا المنهج الطبري، والزمخشري، والرازي، وغيرهم، ومن أشهر المفسرين المتأخرين الذين انتهجوا هذا المنهج الطاهر ابن عاشور، حيث يقول في مقدمة تفسيره: "لإيجاد الذوق أو تكميله لم يكن غنى للمفسر في بعض المواضع من الاستشهاد على المراد في الآية ببيت من الشعر أو بشيء من كلام العرب؛ لتكميل ما عنده من الذوق، عند خفاء المعنى، ولإقناع السامع والمتعلم الذين لم يكمل لهما الذوق في المشكلات. وهذا- كما قلناه آنفا- شيء وراء قواعد علم العربية، وعلم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النفس لها، وبه يترجح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن" .[1]

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢١).

وفيما يلي سأعرض مثالاً تطبيقياً يظهر فيه تفاوت المفسرين من أصحاب المنهجين في مدى تذوقهم للآيات القرآنية، وذلك من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن أَذَقنَا الإِنسانَ مِنّا رَحمَةً ثُمَّ نَزَعناها مِنهُ إِنَّهُ لَيَئوسٌ كَفورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِن أَذَقناهُ نَعماءَ بَعدَ ضَرّاءَ مَسَّتهُ لَيَقولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخورٌ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذينَ صَبَروا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُم مَغفِرَةٌ وَأَجرٌ كَبيرٌ ﴿١١﴾ (سورة هود: ٩ – ١١).

من أصحاب المنهج الأول مقاتل –رحمه الله تعالى– حيث يقول في تفسيره لهذه الآيات:

"(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ) يعني آتينا الإنسان (مِنَّا رَحْمَةً) يعني نعمة يقول أعطينا الإنسان خيراً وعافية (ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ) عند الشدة من الخير (كَفُورٌ) لله في نعمة الرخاء (وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ) يقول ولئن آتيناه خيراً وعافية (بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) يقول بعد شدة وبلاء أصابه يعني الكافر (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي) الضراء الذي كان نزل به (إِنَّهُ لَفَرِحٌ) يعني لبطر في حال الرخاء والعافية، ثم قال: (فَخُورٌ) في نعم الله– عز وجل– إذ لا يأخذها بالشكر، ثم استثنى فقال: (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) على الضر (وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ليسوا كذلك (أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) لذنوبهم (وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) يعني وأجر عظيم في الجنة.[1]

ومثل هذا التفسير خالٍ من الذوق إلا ما ندر، إذ يلجأ القارئ لمثل هذه التفاسير لمعرفة معنى الآية، أو سبب النزول، أو ترجيح رأي...إلخ، أما أن يستأنس فيه القارئ بمعنى لطيف، أو نكتة علمية، أو قيمة بيانية، أو لفتة إعجازية، فهو من النادر جداً.

ومن أصحاب المنهج الثاني ابن عطية –رحمه الله تعالى– حيث يقول في تفسيره لهذه الآيات :

(١) تفسير مقاتل (٢/٢٧٣).

"(أَذَقْنَا) هاهنا مستعارة؛ لأن الرحمة هاهنا تعم جميع ما ينتفع به من مطعوم وملبوس وجاه وغير ذلك. و(الْإِنْسانَ) هاهنا اسم الجنس والمعنى أن هذا الخلق في سجية الناس، ثم استثنى منهم الذين ردتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر والعمل الصالح.

ويؤس وكفور بناءان للمبالغة، وكفور هاهنا من كفر النعمة، والمعنى أنه ييأس ويحرج ويتسخط، ولو نظر إلى نعمة الله الباقية عليه في عقله وحواسه وغير ذلك، ولم يكفرها لم يكن ذلك، فإن اتفق هذا أن يكون في كافر أيضاً بالشرع صح ذلك ولكن ليس من لفظ الآية.

وقال بعض الناس في هذه الآية: (الْإِنْسانَ) إنما يراد به الكافر وحمله على ذلك لفظة (كَفُورٌ)، وهذا عندي مردود؛ لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة الإنسان.

والنعماء تشمل الصحة والمال ونحو ذلك، والضراء من الضر وهو أيضاً شامل. وقد يكثر استعمال الضراء فيما يخص البدن.

ولفظة (ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي) تقتضي بطراً وجهلاً أن ذلك بإنعام من الله، واعتقاد أن ذلك اتفاق أو بسعد من الاعتقادات الفاسدة، وإلا فلو قالها من يعتقد أن ذهابها بإنعام من الله وفضل، لم يقع ذلك. والسيئات هاهنا كل ما يسوء في الدنيا.

وقرأت فرقة «لفرِح» بكسر الراء، وقرأت فرقة «لفرُح» بضمها، وهذا الفرح مطلق، ولذلك ذم، إذ الفرح انهمال النفس، ولا يأتي الفرح في القرآن ممدوحاً إلا إذا قيد بأنه في خير.

وقوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) الآية، هذا الاستثناء متصل على ما قدمناه من أن الإنسان عام يراد به الجنس: ومن قال إنه مخصوص بالكافر قال هاهنا: إن الاستثناء منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى وأما من جهة اللفظ فجيد، وكذلك قاله من النحاة قوم.

واستثنى الله تعالى من الماشين على سجية الإنسان هؤلاء الذين حملتهم الأديان على الصبر على المكاره ومثابرة عبادة الله، وليس شيء من ذلك في سجية البشر وإنما حمل على ذلك حب الله وخوف الدار الآخرة. والصبر والعمل الصالح لا ينفع إلا مع هداية وإيمان، ثم وعد تعالى أهل هذه الصفة تحريضاً عليها وحضاً، بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأجر والنعيم".[1]

وهذا التفسير فيه إبراز واضح لتذوق المفسر للآيات، من خلال ذكره لبعض المعاني وتعليلاتها، وردّ بعضها، واستعمال بعض أوجه اللغة، وكذلك ذكر بعض اللطائف والنكات العلمية.

ولعله من خلال عرض المثال السابق يتضح التفاوت الواضح بين المنهجين في التذوق؛ ويرجع ذلك –والله أعلم– لعدة عوامل، منها:

أولاً: تفاوت الثقافة أو تنوعها، فالمفسر المهتم ببيان اللغة وأبوابها في تفسيره، تختلف نظرته للآيات وتذوقها عن المفسر الفقيه أو الأصولي مثلاً.

ثانياً: حالة العصر الذي يعيش فيه المفسر، وهذا يؤثر على منحى الذوق عنده، فحالة العصر وما فيه من نزاعات أو أخلاقيات أو فتن لها تأثيرها على المفسر؛ لأنه يعيش مع أمته وفي عصره، ولا يستطيع عزل نفسه تماماً عن أوضاع أمته، أو مشاكل عصره، فيظهر أثر ذلك في تفسيره، ويلمح في طريقة تذوقه للنص القرآني.

ثالثاً: موهبة المفسر، إذ لها أثر كبير في اختلاف طرق الذوق ومدى الإمتاع والاقناع اللذين يكسبان تفسيره الجمال.

إلا أن المنهجين فيهما إدراك للأسرار الجمالية في القرآن؛ فالقرآن من ناحية يلامس شغاف القلوب ويتملكها دون التقيد فيه بأي قاعدة بلاغية كانت أو نحوية، فله الحظ الوافر من البيان الذي أعجز البلغاء، وجعل الكفار المعاندين يقرُّون أن

---

(١) التحرير والتنوير (١٥٣/٣).

هذا الكلام ليس من كلام البشر؛ لأنهم أحسوا بحلاوة عباراته، وعذوبة أسلوبه، بمجرد سماعهم له.

ومن ناحية أخرى فإن القرآن متميز بأسلوبه، ونظمه، وبلاغته، والوصول إلى أسرار جماله من هذه الناحية يجب فيه فهم القواعد العربية.

والهدف من كلا المنهجين هو فهم آيات القرآن الكريم، بإبراز ما فيها من الإعجاز والجمال الذي يسترعي الأسماع، ويثير الانتباه، ويحرك الوجدان.

وفهم المعنى الحقيقي الذي أُنزل القرآن لأجله، وتحريك القلب والتعبُّد لله تعالى به هو طلبة أهل القرآن ومستطعم أفئدتهم، وكل جهد يبذله العلماء في بيان مراد الله تعالى من كلامه، واستنباط أسرار وجمال الأساليب على تفنُّنها وتعدُّدها واتِّساعها، إنما بغيتهم من ذلك تحصيل معاني الهدى والرشاد، وتمكينها من أفئدتهم غذاءً وشفاءً ونوراً وضياءً يستضاء به في سيرهم وطريقهم إلى ربهم سبحانه وتعالى؛ لأن المعاني القرآنية ذكرى وهدى ورحمة وشفاء وبشرى للمؤمنين وللمحسنين.

**

المبحث الثالث

أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية،

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث التلاؤم والاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي بين كلماتها.

المراد بالتلاؤم بين كلمات الجملة، حُسْن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب، فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، وبصيراً بجواهر الكلام، فالكلام يذاق كما يذاق الطعام، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حَسُن في الذوق .[1]

فعند تذوق المفسر للجملة القرآنية يجد أنها مؤلفة من كلمات وحروف ذات أصوات بنظم بديع يستريح لتآلفها السمع والصوت والنطق، ويتكون من اجتماعها على الشكل الذي رتبت عليه، نسق جميل ينطوي على إيقاع خفي رائع، ما كان ليتم لو نقصت الجملة كلمة أو حرفاً أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال.

وتذوق المفسر للآيات بهذه الطريقة تجعله يبحر في تأمل التلاؤم والاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي بين كلمات الجملة القرآنية؛ مما يعينه على استنباط المعاني البلاغية، والإعجازية.

ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ (البقرة: ١ – ٢)، فعند التذوق للآيتين الكريمتين نجد أن (الم) جملة برأسها، و(ذلِكَ الْكِتابُ) جملة ثانية، و(لا رَيْبَ فِيهِ) ثالثة، و(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٢٧٠)؛ المعجزة الكبرى القرآن (ص: ١١٥).

هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة.

بيان ذلك أنه نبَّه أولاً على أنه الكلام المتحدَّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال وعلوِّه، وببُعد منزلته وقدره، وببُعد عن أن يكون كمثله كتاب آخر، فهو الكتاب الكامل الجامع ما فيه تحقيق الهداية إلى الصراط المستقيم. فكان تقريراً لجهة التحدي، وشدًّا من أعضاده.

ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب لا في أخباره، ولا في نسبته إلى الله تعالى، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وكان منتجاً عصمته من أن يكون فيه ما يمكن لمنصف إن فتَّشه بموضوعية وتجرّد كامل أن يجد فيه أدنى شيء يمكن أن يرتاب فيه. وهو لا ينفي بقوله: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ أن أحداً لا يرتاب فيه، كيف والذين يرتابون فيه، بل ينكرونه، بل يسفِّهون المؤمنين به أضعاف أضعاف من يؤمنون به، وإنما المراد أنه ليس فيه شيء ما يمكن أن يرتاب فيه مُنصِف، وفي هذا دعوة وتحدٍّ.

ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرّر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يتسامى به المؤمن إلى الدرجات العلى من الهداية، فيبلغ به مقام الإحسان، فيعبد الله تعالى كأنه يراه.

ثم لم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم، من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه. وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة. وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف. وفي الرابعة الحذف. ووضع المصدر الذي هو «هدى» موضع الوصف الذي هو «هاد» وإيراده منكراً. والإيجاز في ذكر المتقين.[1]

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٣٦)، من بلاغة القرآن (ص: ٨٦)، المعنى القرآني للدكتور محمود توفيق (ص: ١١٣، ١١٤).

المطلب الثاني: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل.

عند التأمل في آيات القرآن الكريم، نجد أن كل جملة من جُمَلِه تدل على معانٍ كثيرةٍ واسعة تامة متكاملة مع قِصَرها وإيجازها دون اختصار مخلّ أو ضعف في الدلالة، كما أننا لا يمكن أن نجد في الجملة القرآنية كلمة زائدة يصلح المعنى مع الاستغناء عنها، ولا نستطيع التعبير عن المعنى المراد في الآية إلا بأسطر وجُمَلٍ كثيرة، وهذا كله يجعل عند المفسر ملكة ذوقية رفيعة عند تفسيره للآيات يستطيع من خلالها إبراز جمال الجملة القرآنية.

ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (سورة البقرة: ١٧٩)، فعندما نتذوق هذه الجملة القرآنية نجد أننا لا يمكن التعبير الدقيق عن أثر قيمة القصاص في حياة المجتمع إلاَّ بكلمة حياة؛ فالحياة التي في القصاص تنبثق من كفِّ الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة مَن يُقتل جدير به أن يتروَّى ويفكِر ويتردد، كما أن في القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم؛ فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا كَفَّ القصاصُ الجاني عن إزهاق حياة واحدة؛ فقد كَفَّه عن الاعتداء على الحياة كلها.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أوجز من كلام العرب في هذا المعنى وهو قولهم: القتل أنفى للقتل، وذلك من وجوه:

الأول: أن عدة حروف ما يناظره منه وهو: (القصاص حياة). عشرة في التلفظ، وعدة حروف: (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر حرفاً.

الثاني: ما فيها من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها، فيكون أزجر عن القتل بغير حق؛ لكونه أدعى إلى الاقتصاص.

الثالث: ما يفيد تنكير (حياة) من التعظيم، وذلك لمنعهم عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد، أو النوعية، وهي الحياة الحاصلة للقاتل بانكفافه، والمقتول بالكف عنه.

الرابع: اطراده؛ بخلاف قولهم، فإن القتل الذي ينفي القتل، هو ما كان على وجه القصاص لا غيره.

الخامس: سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكلام، بخلاف قولهم.

السادس: استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم، فإن تقديره القتل أنفى للقتل من تركه.

السابع: أن القصاص ضد الحياة، فالجمع بينهما إطباق.

الثامن: الترغيب والترهيب استخدام كلمة الحياة فيها ترغيب وراحة وتشويق، فناسب استخدامها في العبارة بعد الترهيب بالقصاص الذي يوحي للنفس بالخوف والاشمئزاز مما يردع القاتل عن القتل .[1]

وقد أكثر الإمام السيوطي –رحمه الله– من ذكر الأمثلة الدالة على هذا النوع في آيات القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة النمل: ١٨)، ويقول: "جُمِع في هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام نادت وكنَّت ونبَّهت وسمَّت وأمرت وقصَّت وحذَّرت وخصَّت وعمَّت وأشارت وعذرت فالنداء "يا"، والكناية "أي"، والتنبيه "ها"، والتسمية "النمل"، والأمر "ادخلوا"، والقصص "مساكنكم"، والتحذير "لا يحطمنكم"، والتخصيص "سليمان"، والتعميم

(١) التلخيص في علوم البلاغة للقزويني، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي (ص:٢١٦)؛ الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي (٢/ ٣٦١)؛ إظهار الحق، محمد رحمت الله الهندي (٧٨٤/٣)؛ عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل (٣٨/١).

"جنوده"، والإشارة "وهم"، والعذر "لا يشعرون"، فأدت خمسة حقوق، حق الله، وحق رسوله، وحقها، وحق رعيتها، وحق جنود سليمان".[1]

المطلب الثالث: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس.

من خصائص القرآن الكريم في روعة الأسلوب ودقته، ورقة التأثير، وجمال التصوير، أن المفسر المتذوق يعيش مع آياته واقعاً محسوساً بحيث إن العقل يفهم والخيال يتصور، فيجسد المعاني الذهنية والعقلية المجردة ويخرجها في مظهر الأمر المحسوس، وهذا لا نجده في الكلام المألوف والمعروف أياً كان كاتبه وأسلوبه وطريقته، مما يدل على تميز الجملة القرآنية بهذا الإعجاز.

ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة النور: ٣٩)، فعندما نتذوق هذه الجملة القرآنية نجد فيها تصوير أعمال الكفار بالسراب في مفازة مكشوفة مبسوطة، يلتمع التماعاً كاذباً في حر النهار، فيتبعه صاحبه العاطش الظامئ يحسبه ماءً، وهو يتوقع الري غافلاً عما ينتظره هناك، وفجأة يتغير المشهد تغيراً تاماً. فهذا السائر وراء السراب، الظامئ الذي يتوقع الشراب، الغافل عما ينتظره هناك يصل. فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١٨٣).

المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال، وجد المولى الحق سبحانه وتعالى، الذي كفر به وعاداه؛ ليعطيه حسابه، وافياً، كاملاً، وقد ذهبت أعماله التي ظن نفعها وحبطت؛ بسبب الكفر!!

يقول ابن عاشور –رحمه الله–: "فتشبيه الكافرين وأعمالهم تشبيه تمثيلي، شبهت حالة كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها مع ظنهم أنها تقربهم إلى رضى الله، ثم تبين أنها لا تجديهم بل يلقون العذاب في وقت ظنهم الفوز. شبه ذلك بحالة ظمئان يرى السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء لم يجد ماء ووجد هنالك غريماً يأسره ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة.

واعلم أن الحالة المشبهة مركبة من محسوس ومعقول، والحالة المشبه بها حالة محسوسة. أي داخلة تحت إدراك الحواس" .[1]

ومن ذلك ما أوضحه الله تعالى لرسوله ﷺ أنه لا جدوى من أن يضيق صدره بكفر الكافرين، وإلا فليجهد جهده وليعمل كل ما بوسعه في تقديم آية لهم، إن كان قادراً، يبرهن بها على صدقه ويدخل بها الإيمان في قلوبهم. فالتعبير عن هذا المعنى بمثل هذه الألفاظ أو نحوها مما هو مألوف ومقدور عليه، وهو معنى يخاطب به العقل والفكر مباشرة، ولكن انظر إلى التعبير القرآني: ﴿وَإِن كانَ كَبُرَ عَلَيكَ إِعراضُهُم فَإِنِ استَطَعتَ أَن تَبتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرضِ أَو سُلَّمًا فِي السَّماءِ فَتَأتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَو شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدى فَلا تَكونَنَّ مِنَ الجاهِلينَ ﴿٣٥﴾ (سورة الأنعام: ٣٥)، فقد صوّر أولاً التألم من إعراضهم، في صورة شيء قد كبر وضخم حجمه ينوء الرسول ﷺ تحت ثقله ويضيق ذرعاً به. ثم صوّر الجهد الذي لن يأتي منه بطائل إن هو أجهد نفسه به، بصورة من يريد أن يتخلص من كل الثقل العالق به، فهو ينبعث، في قلق وبحث دائبين، نحو كل الجهات، وخلف

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥١).

كل حجاب وستر، ليعثر على ما قد ينشط به من هذا العقال المتشبث به. فأنت ترى الآية قد أخرجت هذا المعنى الفكري في مظهر شيء محسوس، ثم بثّ فيه الحركة والحياة كما قد رأيت، ثم جسّمت الفكرة نفسها في هذه الصورة الحيّة المتحركة وخاطبت بذلك كله الخيال قبل أن تخاطب مجرد الفكر والذهن.[1]

المطلب الرابع: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث طريقة أسلوبها.

أسلوب القرآن الكريم هو: طريقته التي تميَّز بها في انتقاء ألفاظه، وتأليف جُمَله وكلامه. فالقرآن الكريم له أسلوبه الخاص الذي انفرد به عن سائر الكلام، "والأسلوب القرآني يحمل طابعاً لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه؛ بل يدع الأعناق تشرئب إليه ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور".[2]

وعند تأمل المفسِّر أسلوب القرآن الكريم يجده جاء مستوفياً لكل أغراض البيان، فكل أسلوب في موضعه له غرضه البلاغي، وتأثيره في عقل وقلب قارئه ومستمعه، وهذا التأثير يعين المفسر على إبراز جمال الجملة القرآنية عند تذوق هذه الأساليب المختلفة.

قال محمد رشيد رضا -رحمه الله-: "وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم، والقاموس المحيط الأعظم، فإنه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية، وذلك أن يمزج فنون الكلام. وينظم مقاصد الهداية والإرشاد على اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها، مزجاً متلائماً، ونظماً متناسباً متناسقاً، موافقاً للذوق السليم، مطابقاً لنكت البلاغة. فالعقائد الإلهية والدلائل العلمية والعقلية، والأخبار الغيبية، والسنن الكونية والاجتماعية، والمواعظ الأخلاقية والأدبية، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية، وقصص الأنبياء، ووصف الأرض والسماء، وما

(١) من روائع القرآن (ص: ١٧٢).

(٢) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز (ص: ١٢٩).

فيهما من جمادات وأحياء، وما بينهما من هواء وهَبَاء، تراه كله في السورة الواحدة، وترى الكثير منه في آية واحدة، بعبارة بديعة مؤثرة، ينتقل فيها العقل من فائدة إلى فائدة ويتقلب فيها القلب من موعظة إلى موعظة، مع منتهى الإحكام والمناسبة، بحيث لا تمل تلاوته، ولا تفتأ تتجدد هدايته...".[١]

وأساليب القرآن الكريم في تركيب جُمَلِه كثيرة ومتنوعة، ومن الصعوبة حصرها، ومن المشقة استيفاء الأسلوب الواحد منها بالدراسة [٢]، وبلاغة القرآن الكريم البيانية من أوجه إعجازه التي يعجز المرء عن الإحاطة بها، ومن أهم تلك الأساليب:

التقديم والتأخير، والترغيب والترهيب، والقسم، والتضمين، والمشاكلة، والالتفات، والتكرار، والحصر، والحذف، والقلب، والاستفهام، والتوكيد، والالتفات، التشبيه، الاستعارة، وغيرها.[٣]

ومن أمثلة أساليب القرآن الكريم، الاستقصاء، وهو أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه، فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالا، كقوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٦)، قال السيوطي –رحمه الله–: " فإنه تعالى لو اقتصر على قوله "جنة" لكان كافياً فلم يقف عند ذلك حتى قال في تفسيرها: (من نخيل وأعناب) فإن مصاب صاحبها بها أعظم ثم زاد (تجري من تحتها الأنهار متمماً لوصفها بذلك، ثم كمل وصفها بعد التتميمين فقال: (له فيها من كل الثمرات) فأتى بكل ما يكون في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها، ثم

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٢٩٨/٩).
(٢) من أفضل المؤلفات في أساليب القرآن الكريم كتاب دراسات في أساليب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة.
(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٨٣/٢).

قال في وصف صاحبها: (وأصابه الكبر) ثم استقصى المعنى في ذلك بما يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه بالكبر (وله ذرية)، ولم يقف عند ذلك حتى وصف الذرية بالضعفاء، ثم ذكر استئصال الجنة التي ليس لهذا المصاب غيرها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال: (فأصابها إعصار)، ولم يقتصر على ذكره للعلم بأنه لا يحصل سرعة الهلاك فقال: (فيه نار) ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا تفي باحتراقها لما فيها من الأنهار ورطوبة الأشجار فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله: (فاحترقت) فهذا أحسن استقصاء وقع في كلام وأتمه وأكمله" .[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٧)، قال الرازي –رحمه الله: "أنه سبحانه لما بيَّن أحكام الصوم على الاستقصاء في هذه الآية بالألفاظ القليلة بياناً شافياً وافياً، قال بعده: (كذلك يبين الله آياته للناس) أي: مثل هذا البيان الوافي الواضح الكامل هو الذي يذكر للناس، والغرض منه تعظيم حال البيان وتعظيم رحمته على الخلق في ذكره مثل هذا البيان".[2]

ومن أمثلة أساليب القرآن الكريم، الاطِّراد، وهو أن يذكر المتكلم أسماء آباء الممدوح مرتبة على حكم ترتيبها في الولادة، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعتُ مِلَّةَ آبائي إِبراهيمَ وَإِسحاقَ وَيَعقوبَ ما كانَ لَنا أَن نُشرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيءٍ ذلِكَ مِن فَضلِ اللَّهِ

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٥٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٧٨).

عَلَينا وَعَلَى النّاسِ وَلكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَشكُرونَ ﴾ (سورة يوسف: ٣٨)، فبدأ بيوسف عليه السلام بذكر جده العالي إبراهيم عليه السلام أولاً؛ لأنه الأول من آبائه الأقربين الذين حملوا الملة التي يدعو صاحبيه في السجن لاتباعها، وذكر بعده ابن إبراهيم المباشر وهو إسحاق عليه السلام، وذكر بعد إسحاق ابنه يعقوب عليه السلام، ويعقوب هو الأب المباشر ليوسف عليهم السلام أجمعين.

قال ابن أبي الإصبع: "وإنما لم يأت به على الترتيب المألوف، فإن العادة الابتداء بالأب ثم الجد ثم الجد الأعلى؛ لأنه لم يرد هنا مجرد ذكر الآباء، وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التي اتبعها فبدأ بصاحب الملة ثم بمن أخذها عنه أولاً فأولاً على الترتيب" .[1]

المطلب الخامس: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث دلالة سياقها.

فهم الكلام في السياق الذي ورد فيه من أهم مقومات فهم القرآن الكريم وتدبره؛ ويجعل المفسّر يتذوق الآية ويبرز جوانب الجمال فيها، قال ابن تيمية – رحمه الله– مبيناً أهمية العلم بدلالة السياق: "فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن: تبيَّن له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج. وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية. فإن هؤلاء أكثر غلطاً من المفسرين المشهورين؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرون"[2]، وقال ابن القيم –رحمه الله–: " السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٩٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٤).

الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (سورة الدخان: ٤٩)، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير" .[١]

وعليه فإن المفسّر إذا تأمل في سياق الآيات والجُمل والألفاظ، وأمعن النظر في سباقها ولحاقها انفتحت له جملة من أسرار الدلالات والجماليات، وترجحت عنده معانٍ كثيرة قد لا تكون راجحة عند غيره.

ومن أمثلة ذلك ما قاله ابن كثير –رحمه الله– عند قوله تعالى: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفسي إِنَّ النَّفسَ لَأَمّارَةٌ بِالسّوءِ إِلّا ما رَحِمَ رَبّي إِنَّ رَبّي غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ (سورة يوسف: ٥٣)، حيث يقول: " (وما أبرئ نفسي) تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته؛ لأن (النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) أي: إلا من عصمه الله تعالى، (إن ربي غفور رحيم) وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام...وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس بن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذلِكَ لِيَعلَمَ أَنّي لَم أَخُنهُ بِالغَيبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهدي كَيدَ الخائِنينَ ﴿٥٢﴾ وَما أُبَرِّئُ نَفسي إِنَّ النَّفسَ لَأَمّارَةٌ بِالسّوءِ إِلّا ما رَحِمَ رَبّي إِنَّ رَبّي غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ (سورة يوسف: ٥٢ – ٥٣)، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب، (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) الآية، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه...والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك" .[٢]

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم .(٤/ ٣٣٨)

ومن آثار تذوق دلالة السياق لإبراز الجمال فيه، ما استنبطه ورجَّحه السعدي –رحمه الله– في حال الرجل الذي مرَّ على قرية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٩)، حيث يقول: " والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آية ودليلاً للناس، لثلاثة أوجه، أحدها: قوله (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) ولو كان نبياً أو عبداً صالحاً لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث: في قوله: (فلما تبيَّن له) أي: تبيَّن له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم" .[1]

وكذلك ما استنبطه ابن عاشور –رحمه الله– من نكتة تقديم الكتاب على القرآن معتمداً على السياق عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ وَقُرآنٍ مُبينٍ﴿١﴾ رُبَما يَوَدُّ الَّذينَ كَفَروا لَو كانوا مُسلِمينَ ﴿٢﴾ ذَرهُم يَأكُلوا وَيَتَمَتَّعوا وَيُلهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوفَ يَعلَمونَ ﴿٣﴾ (سورة الحجر: ١ – ٣)، حيث يقول: "فأما تقديم الكتاب على القرآن في الذكر؛ فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنهم سيجيء وقت يتمنون فيه أن لو كانوا مؤمنين. فلما كان الكلام موجهاً إلى

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١١٢).

المنكرين ناسب أن يستحضر المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم بعنوانه الأعم وهو كونه كتاباً؛ لأنهم حين جادلوا ما جادلوا إلا في كتاب فقالوا: ﴿لَو أَنَّا أُنزِلَ عَلَينَا الكِتابُ لَكُنّا أَهدى مِنهُم﴾ (سورة الأنعام: ١٥٧)؛ ولأنهم يعرفون ما عند الأمم الآخرين بعنوان "كتاب"، ويعرفونهم بعنوان "أهل الكتاب" .[١]

المطلب السادس: أثر الذوق في إبراز جمال الجملة القرآنية من حيث دلالة المناسبة بين الآيتين، أو آيات السورة الواحدة.

علم المناسبات، هو علم تعرف به وجوه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض، ويشمل ذلك الآية مع الآية، والحكم مع الحكم، والسورة مع السورة، والقصة مع القصة، وكل جزء من القرآن مع ما قارنه. والقرآن الكريم الله تعالى هو الذي أحكم ترتيب حروفه وكلماته وجُمَله وآياته، وهذا موضع إجماع بين العلماء، قال تعالى: ﴿الر كِتابٌ أُحكِمَت آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَدُن حَكيمٍ خَبيرٍ﴿١﴾ (سورة هود: ١)، ومما يجب على المفسّر تذوقه وإبرازه عند تفسيره لآيات الذكر الحكيم، مناسبة ترتيب آيات وجُمَل السورة الواحدة بعضها مع بعض؛ لأهميته وعظيم فائدته، قال الفخر الرازي: "أكثر لطائف القرآن مودَعة في الترتيبات والروابط"[٢]، وقال الزركشي: "واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول"[٣]، وقال البقاعي مبيناً فائدة جليلة من فوائد معرفة هذا العلم: "وبهذا العلم: يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين:

إحداهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثانية: نظمها مع تاليتها بالنظر إلى الترتيب. والأول أقرب تناولاً وأسهل ذوقاً؛ فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه وتحصل له عند

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٩).
(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦).
(٣) السابق (١/ ٣٥).

سماعه روعة بنشاط مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمُّل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهزّ والبسط، ربما شككه ذلك وزلزل إيمانه؛ فإذا استعان بالله وأدام الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز والوقوف بأنه في الذروة من إحكام الربط كما كان في الأوج من حسن المعنى، فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار رقص الفكر منه طرباً وشاط لعظمة ذلك جنانه، ورسخ من غير مرية إيمانه".[1]

ومن أمثلة المناسبة بين الآية والتي تليها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سورة الفاتحة: ٥)، فإنه لما ذكر في أول السورة استحقاق الله تعالى لكل المحامد، وكونه رباً للعالمين، وهو الرحمن الرحيم، وهو مع كل هذا الملك المتصرف في اليوم الذي لا ملك فيه لأحد إلا لله عز وجل، كان من شأن كل عاقل أن يُقبِل على مَن هذه صفاته وتلك عظمته معترفاً بالعبودية له والذل الكامل لجنابه العظيم ملتجئاً إليه طالباً منه العون والمدد، ثم إنه لما حَمِدَ وأثنى ومجّد واعترف بالعبودية ناسب أن يستشرف للطلب من ذلك الرب المستعان، فيقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الفاتحة: ٦).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ (سورة آل عمران: ٢٣ – ٢٤)، ووجه المناسبة بين الآيتين: أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: (ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)، قال في الآية الثانية: (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) أي: ذلك التولي والإعراض إنما حصل

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٢١).

بسبب أنهم قالوا: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ (سورة غافر: ٣٨ – ٣٩)، قال الآلوسي: "وترك العطف في النداء الثاني وهو يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إلخ لأنه تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد فإنها التحذير من الإخلاد إلى الدنيا والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه وأحسنه" .[1]

ومن أمثلة المناسبة بين آيات وجُمل السورة الواحدة، سورة النصر، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ، ولما كان النصر درجات، وكان أكمله ما يتبعه من الفتح قال: ﴿ وَالْفَتْحُ ﴾، ولما بشر بهما زاد في البشارة ببيان رؤية ما يترتب عليهما فقال: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ، ولما بيَّن له كمال نعمته عليه بيَّن له ما يجب عليه من الأمر بتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بكل كمال، وحمده على جزيل عطائه فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ولما أمره بما يعجز العبد عن الوفاء بحقه، ويعجز غيره من باب أولى به أمره بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، ولما أمر بذلك علَّله وشجعه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. وقد جاءت مناسبات في هذه السورة الكريمة دقيقة محكمة، حيث جعل كل جملة منها مقدمة لما بعدها، فلما كان النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب بدأ بذكر النصر، وعطف الفتح عليه، ولما كان دخول الناس في دين الله أفواجاً مترتباً عليه جاء بعده، ولما كمل نعمَه عليه أمره بما يجب عليه في مقابل نِعَمه، ولما كان الشكر يبدأ بشهود الجلال والكمال بدأ به، ثم ثنى بحمده، الذي يشير إلى شهود نعمه ومعرفة إحسانه وإكرامه، ولما كان شهود كماله وإدراك فيض نعمه وإحسانه يوصلان العبد لشهود تقصيره جاء الأمر باستغفاره.[2]

---

(١) روح المعاني (١٢/ ٣٢٤).
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٣٢/ ٣٣٤)؛ نظم الدرر للبقاعي (٢٢/ ٣١٤).

الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأحمده حمداً كثيراً كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه على ما منَّ به عليَّ من إتمام كتابة هذا البحث، وأرجو منه سبحانه وتعالى أن يجعله بابًا إلى تحصيل العلم النافع، والعمل الصالح المتقبل، وبعد:

فيمكن إجمال أهم نتائج البحث في النقاط التالية:

أولاً: توافر ملكة الذوق عند المفسّر له أهمية بالغة؛ حيث إن ترسخ هذه الملكة لديه تجعله يتذوق حلاوة النص القرآني، ويفهم مراميه، ويعي مقاصده.

ثانياً: الذوق السليم وإن كان موهبة فطرية قوامها الذكاء، وحسن الاستعداد، وسرعة البديهة، إلا أن ذلك يحتاج إلى دربة ودراسة وتعلُّم.

ثالثاً: الجملة القرآنية، هي بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تضيق فيها كلمة بمكانها، أو تنبو عن موضعها، فكل جملة في هذا الكتاب الحكيم وُضِعت موضعها الذي لا يَصلح غيره ليحلَّ محلَّه، فإذا وُقِفَ على سرِّه انكشف بعضٌ مِمّا فيه، وخَفِي ما هو أعظم، فإنه ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾(الكهف: ١٠٩).

رابعاً: يستطيع المفسّر من خلال الذوق أن يستكشف مفاتيح النص القرآني، وإبراز ما فيه من الجمال.

خامساً: تفاوت المفسرون في ذوقهم، فمنهم من كان ذوَّاقاً ذاتيًّا للفظ القرآني وجُمَله، فيستشف الجمال ولا يُعلِّله، بينما نحى بعضهم في تذوقه منحًى موضوعياً من حيث ألفاظ الجملة ومعناها وسر جمالها، معتمداً في ذلك كله على سلامة الذوق، وقواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وغيرها.

سادساً: من أهم المميزات التي امتازت بها الجملة القرآنية، التلاؤم والاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي بين كلماتها، والدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى تام

متكامل، وإخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس، وطريقة أسلوبها، ودلالة سياقها، ودلالة المناسبة بين الآيتين، أو آيات السورة الواحدة.

سابعاً: جمال وقع الجملة القرآنية وانسجامها مع السمع بمختلف الحيثيات والمميزات، من أهم وجوه الإعجاز القرآني التي تذوقها المفسرون عند تفسيرهم لكتاب الله تعالى على تفاوت تذوقهم لها.

وختاماً أوصي الباحثين في الدراسات القرآنية ببذل الجهد في إبراز جمال القرآن الكريم، وذلك بتذوق الأساليب العربية المختلفة التي أنزله الله تعالى بها، فهو من جهة يمثل ثروة بلاغية هائلة لا تنضب، ومعيناً لغوياً لا ينفد، مع الوقوف على أسرار معانيه، وتحليل النص القرآني، واتِّخاذه أداة يُضيفها المفسِّر إلى أدواته العديدة الأخرى في التحليل والتفسير والتأويل.

**

فهرس المصادر والمراجع

١-الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

٢-إظهار الحق، محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي، دراسة وتحقيق وتعليق: الدكتور محمد أحمد ملكاوي، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩ م.

٣-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م.

٤-إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.

٥-بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٦- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.

٧- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٨-تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٩- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ م.

١٠-التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

١١-تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

١٢-تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

١٣-تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ.

١٤-التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، الناشر: الفكر العربي، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي.

١٥-تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

١٦-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

١٧-الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٨-الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ.

١٩-خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٠-دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٢١-ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٢٢-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٢٣-صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٥-الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ.

٢٦-عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٢٧-العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٨-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٢٩-الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٠-لسان العرب، محمد بن مكرم أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٣١-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر، القاهرة.

٣٢-مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٣٣-المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

٣٤-المعجزة الكبرى القرآن، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.

٣٥-المعجم الفلسفي المؤلف: الدكتور جميل صليبا، الناشر: الشركة العالمية للكتاب - بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٣٦-معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

٣٧-معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٨- المعنى القرآني، الدكتور محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٩-مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٤٠-مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٤١-المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

٤٢-المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، المحقق: د. علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م.

٤٣-المقتضب، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد، المحقق: محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب – بيروت.

٤٤-من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، الناشر: نهضه مصر – القاهرة، ٢٠٠٥م.

٤٥-النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة: طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤٦-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤٧-النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.

* * *